المحاضرة الرابعة

جماعة الإحياء

أولاً: الشعراء المحافظون:

بقي الشاعر العربي على عهد الحكم التركي متخلفاً، شأنه شأن اي نشاط فكري أو علمي أو اجتماعي.

وإذا كانت مصر قد تمكنت من أن تفلت من عِقال الحكم المباشر للأتراك، منذ عهد محمد علي، فإن الأدب ظل يدور في دروبه الضيقة، إذ انصبت جهود هذا الوالي على ما يحقق له أطماعه في السيطرة على مصر. (ومن ثم بقي الشعر والفن على صورته السالفة في العصور العثمانية ينبع من التكلف، ويسير في أخاديد الصنعة، ويعيش في سراديب الضعف والتهالك. وظل الشعراء يسلكون نفس الدروب الملتوية الضيقة، التي سلكها اسلافهم ومعاصروهم في البلاد العربية من أمثال الشيخ اسماعيل الخشاب والشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل والسيد علي الدرويش. ينشدون شعراً فقد روحه العربي الخاص– وغدا جسماً يخلو من الحياة. فقد أحالته الصنعة والتكلف ضئيلاً بديعته اضطراباً والتواء، أشبه بالأحاجي والألغاز، واصبح المثال الأعلى للشاعر قدرته على تكبيل شعره بأكبر عدد من أغلال الصنعة التي تكتم أنفاس الخصائص الفنية وتذهب بروح الشعر ومعناه).

وهذه الصورة التي سلكها الشاعر في مصر كانت على ضعفها وتخلفها افضل من الصور التي تركها شعراء الاقطار العربية الأخرى، فقد وجدنا مجموعة من الشعراء تنهض بالشعر (ولكن في بطء شديد على نحوٍ ما يصور ذلك علي ابو النصر، وعبد الله فكري وعلي الليثي وعبد الله النديم ومحمود صفوت الساعاتي ومحمد البجاري وعبد الهادي الابياري وصالح مجدي وغيرهم.

وعلى الرغم من ان هؤلاء هم من جيل البارودي، إلا أنهم لم يفهموا الشعر إلا على أنه (لم يزد على أنه نديم في المحافل يلقى سامعيه ويعاشرهم ويضحكهم بالملح والأحاديث... ذلك لأن ذوق العصر الذي عاش في الظلمة الفكرية والسياسية قيم الشاعرية على أنها اللياقة، وذرابة اللسان، وهي قبل كل شيء صناعة كلام وتنميق ألفاظ، وبراعة المساجلة والإقحام).

ومعنى هذا ان الشعر ظل يجري في دروب الضحالة، حتى إذا ظهر البارودي انتشله من واقعه المتخلف ونهض به إلى ما يسمو بشأنه، ووصله بتلك الجذور البعيدة التي حققت له ما كان يصبو إليه من عز ويتمنى من عظمة ويتوق إلى الأبداع في الفن الشعري.

(محمود سامي البارودي)

١٨٣٨– ١٩٠٤م

الحياة والسيرة:

في سنة ١٨٣٨ ولد محمود سامي البارودي من أسرة شركسية. سبق لها أن حكمت مصر لقرن ونصف القرن، ولهذا النسب أثره في تطلع البارودي نحو المجد، المجد السياسي والمجد الأدبي، لأنه ومنذ أن شب، شب معه شعور بالسعي نحو السؤدد والسيادة، كثيراً ما تردد على لسانه فخراً بآبائه وأجداده في مثل قوله:

من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فخر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

وكانت أمه تثير في نفسه هذه المشاعر، لتجعل منه رجلاً يناضل الحياة بهمة وقوة خصوصاً بعد ان تعرض لليتم وهو السابعة من العمر، فكانت تحدثه عن عظمة أبيه وبطولة جده وشهرة خاله (ابراهيم) في ميدان نظم الشعر، مما حدا به إلى يفخر به شاعراً حين فخر بشاعريته هو فقال:

أنا في الشعر عريق لم أرثه عن كلالة
كان إبراهيم خالي فيه مشهور المقالة

وكان لنسبه الشركسي الذي يعتد به أثرهما في تأكيده على عنصر البطولة والشجاعة في شعره وربما شجعه للانضمام إلى الجيش، بعد أن انتهى من دراسته الأولية ليكون مع رفاقه من أبناء الشراكسة الذين سبقوه إليه. ولكن القدر كان يترصده، فقد وقف الخديوي سعيد بحماقة ضد معاهد التعليم والجيش، وحين أغلق معظمها، حيل بين الفتى وبين طموحه في أن يكون ضابطاً له مهابته في صفوف المقاتلين. ولكن الشاب الطموح وجد أسباباً أخرى تحقق له ما كان يسعى غليه، فقد وجد ذلك في مكتبة خاله إبراهيم التي كانت تحتوي نفائس المخطوطات والمطبوعات من دواوين الشعر وكتب التاريخ. كما وجد ذلك في مكتبات الاستانة، حين وصلها بعد مغادرته مصر التي ضاقت بنفسه وبطموحاته.

وفي عاصمة الأتراك، يكتسب الشاعر خبرة في الحياة، ومعرفة بشؤون الناس وسعة في الثقافة.

ويعود إلى مصر مع الخديوي إسماعيل الذي وثق به، وعينه قائداً لكتيبتين من فرسان حرسه عام ١٨٦٣.

ولقد حققت عودته إلى صفوف الجيش ما كان يتمناه من مجد وسؤدد، وخصوصاً حين شارك في الحروب التي خاضها الاتراك ضد خصومهم الأوربيين- فكان فيها قائداً منتصراً وجندياً شجاعاً لا يعرف الهزيمة.

ولقد جسد العديد من قصائده تلك الانتصارات، بما يؤكد قوة شخصيته والاعتداد بشجاعته. وربما عكست تلك القصائد أيضاً، قدرته الفنية في نظم الشعر، كما عكست طموحاته السياسية. ولقد كان اعتداد البارودي بنفسه، وفخره بنسبه أشد ما يميزه من غيره من الشعراء، أليس هو القائل:

أبت لي حمل الضيم نفس أبية وقلبٌ إذا سيم الأذى شب وقده
ولي من بديع الشعر ما لو تلوته على جبل لا نهال في الدو ريده

كانت ضروب البسالة التي أمدها البارودي سبباً في ترقيته إلى مرتبة (ياور) الخديوي. وقد هيأ له هذا الموقع أن يحيا في بحبوحة من رغد العيش، وأن يكون على اتصال مستمر بالخديو وعلى مقربة من الحياة اللينة التي تتمثل بالقصور الثلاثين التي كان اسماعيل قد ابتناها له في القاهرة والاسكندرية والاقاليم، والتي (ملأها بألوف الجواري الحسناوات والوصفيات الجميلات. وأتى لها بفرق من المغنيات والراقصات والممثلات والعازفات) وفي أجواء هذه القصور، قضى شاعرنا ثماني سنوات، وتهيأت له كل أسباب النعيم بما شاء في مجالس الطرب، وتدغدغ صور الحياة اللاهية أوتار حسه وتغوص إلى أعماق مشاعره، وتتحول في نفسه تجارب حقيقية بعيدة عن الزيف، وتصير بعد ذلك قصائد تطفح بالحيوية وتجسد ما في شبابه من اقبال على الحياة واندفاع إلى الملذات ولم لا تكون كذلك والشاعر يفصح عنها بصراحة المعروفة إذ يقول:

خلعت في حب غزلان الحمى وسني وبعت السهد في ليل الهوى وسني
واعجبتني على ذم العذول لها صبابة نقلت سري إلى العلن
فليبلغ العذل مني ما أراد فقد أسلمت للشوق روحي والضنى بدني

غير أن الشاعر يعلن أن حبه هذا لم يكن حباً خليعاً فيقول:

والعشق مكرمة إذا عف الفتى عمّا يهيم به الغوي الأصور

مكث البارودي ثماني سنوات في قصر اسماعيل يراقب الحياة المصرية ويتكشف ابعادها السياسية والاجتماعية والخلقية، ولم يقف في كل ذلك متفرجاً بل راح يمعن فيها ليكون في نفسه صورة كاملة لدقائقها. وقد اكتشف أن الذين يحكمون مصر وقتئذ، يقيدون شعبها بالسلاسل، ويتآمرون على شعبها وقد حز ذلك في نفسه، وأبى أن يغض الطرف عنه، ولم تمنعه مسؤولياته الكبيرة ووظائفه العالية التي شغلها من ان يقف الموقف الوطني المطلوب وهو موقف حال بينه وبين أن يكون شاعراً للبلاط، وهذا ما يؤكده شعره في تلك الفترة.

وتسوء حال البلاد، وتثور بسببها الشاعر الأبية، فيطلق على أثر ذلك صرخته المدوية، ليفضح بها فساد الحكام، ويكشف ظلمهم ويؤلب الناس عليهم فيقول:

قامت به من رجال السوء طائفة أوهى على النفس من بؤس على شكل
من كل وغدٍ يكاد الدست يدفعه بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلّت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل

وتعد قصيدته اللامية هذه، من عيون قصائده النقدية الثائرة التي تجسد ما في طبيعته من إباء وشمم، وتصور ما كان يجري في مصر على عهد اسماعيل. وتضطرب امور البلاد اضطراباً شديداً ينتهي بمجيء الخديوي توفيق بدلاً من أبيه اسماعيل. وتسقط وزارة لتحل محلها أخرى، وينتهي المطاف بتقلب البارودي بين وزارتي الاوقاف والحربية. ثم يقور الجيش في آخر الأمر بقيادة أحمد عرابي ومشاركة البارودي ومجموعة من الضباط الوطنين.

غير أنّ الأمور تنتهي في آخر الأمر بفشل الثورة ويلوم الثوار بعضهم البعض الآخر وينتخي بهم المطاف إلى الاستسلام، وينفى معظمهم بعد محاكمة صورية إلى خارج البلاد، وتكون جزيرة سرنديب النائية مقراً لنفي الشاعر ليقضي فيها سبعة عشر عاماً أو يزيد.

في نهاية ١٨٨٢، تبحر إحدى بواخر الانكليز – مُقلة البارودي وبعض صحبه إلى جزيرة سرنديب. ويطل الشاعر على ساحل مصر ليلقي عليه نظرة الوداع. وما تكاد الباخرة تغادر أرض النيل حتى ترتفع عواطف الشاعر الدافقة للتحول إلى مشهد حزين ينتهي إلى تجربة صادقة، تجسدها قصيدته النونية التي يبدأها بقوله:

ولمّا وقفنا للوداع وأسبلت مدامعنا فوق الترائب كالمزن
أهبّت بصيري أن يعود فعزني وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن

ولا شك إن هذا الموقف قد حقق لشاعرنا تجربة تسمو على كل تجاربه السابقة لأن أبعادها لا تقف عند حدود نفس الشاعر فحسب، بل تمتد إلى أطراف أخرى، هي الأرض والوطن والأهل والأولاد ورفاق الجهاد، فهؤلاء كلهم يشكلون حدوداً لتجربة الفراق والغربة، على الرغم من أن الشاعر قد سبق له أن جربها حين فارق الوطن جندياً مقاتلاً ضد اليونانيين والروس وغيرهم. ولكن شتان ما بين الحالين. وفي بيئة الغربة الجديدة هذه، لا تستقر نفس البارودي على حال بل هي تضطرب اضطراباً شديداً حتى في علاقات الشاعر مع رفاق السلاح الذي دبّ الخلاف بينهم وبين البارودي على الخصوص. وكان ذلك من أشد ما عاناه من عذاب نفسي أنتهى في آخر الأمر إلى أصابته بالعديد من الأمراض، وعلى الخصوص في إحدى عينيه التي بدأت تفقد

وظيفتها البصرية، واعتل بعض اعضاء جسده. وينتهي ذلك كله باعتزاله معظم الرفاق مكتفياً بخادمه الأسود الذي اصطحبه معه، مؤثراً العزلة عن الناس.

وتمضي أيام الشاعر رتيبة، وتتبعها سنون أكثر رتابة. ويمعن الشعور بالضياع في نفسه حتى يصير شبحاً مخفياً.

ويضاف إلى هذا ما كان يصله من أخبار سيئة عن أهله وأصحابه. فقد تخطف الموت زوجته عام ١٨٨٧ بالقاهرة. وينزل الخبر على الشاعر (نزول الصاعقة، وتدركه ربة الشعر بقيثارتها، تنشد له نشيد الرثاء حتى لا يبخع نفسه على أثرها بنصف نفسه فيقول:

أيـــد المنـــون قـــدحت أي زنـــاد وأطـــرت أيـــة شـــعلة بفـــؤادي
أوهنـــت عزمـــي وهـــو حملـــة فيليـــق وحطمـــت عـــودي وهـــو رمـــح طـــراد

وقد طفحت مرثيته لزوجته بعواطف اللوعة حتى قال عنها أحد النقاد (ومطولة البارودي التي يبكي فيها زوجته الحبيبة ويندبها على البعد، من نادر الشعر العربي، فقليلاً ما رثى الشعراء العرب زوجاتهم، ذلك لأن رثاء النساء لم يكن مألوفاً في البيئة العربية، والحزن في القصيدة حزنٌ عميق جدير بأن يعد نموذجاً في الشعر العربي للعاطفة بين الزوج والزوجة) وتتوالى الأحداث الجسام على الشاعر، فيصدمه القدر وفاة الزوجة بوفاة أحدى بناته، ويعزف لها نشيد الموت مرة أخرى فيقول:

فزعـــت إلـــى الـــدموع فلـــم تحبنـــي وفقـــد الـــدمع عنـــد الحـــزن داء
ومـــا قصـــرت مـــن دمـــع ولكـــن إذا غلـــب الأســـى ذهـــب البكـــاء

وفي هذه الفترة من حياة الشاعر يتوالى نعي موت اصدقاء العمر ورفاق الجهاد، ليحمل معه أخبار من عصف بهم الموت. وكان من بينهم الشدياق وعبد الله فكري. فبكاهما بكاءٌ حاراً وبكى معهما الوطن وفي سنة ١٨٨٩ يشتد بالشاعر المرض، ويحال إلى لجنة من الأطباء التي تقرر ضرورة عودته إلى مصر. وما تكاد قدماه تحط ارض امصر، حتى ينشد قصيدته المشهورة التي شهدت له بالحب والوفاء لمصر ولأهلها، كما شهدت بقمة نضجه الفني وصدقه الشعوري. وفيما يقول:

أبابـــل رأي العـــين أم هـــذه مصـــر فـــأني أرى فيهـــا عيونـــاً هـــي الســـحر

وفي السنوات الخمس التي تبقت من عمره والتي قضاها الشاعر بداره المطلة على النيل، عمل على تنقيح ديوانه الضخم، فراح يقرأ شعره من جديد حتى اكتمل له في ٥٢١٣ بيتاً، غير

قصيدة وكشف (الغمة) وعدد أبياتها ٤٤٧ بيتاً، وغير المقطوعات التي وردت في كتابه (قيد الأوابد).

وتميزت داره وحياته في تلك السنوات بنشاط أدبي منقطع النظير، حتى صارت منتدى أدبياً مشهوراً، يستقبل فيه الشعراء والأدباء، وقلما تخلف عن زيارته شاعر مشهور أو أديب معروف. كما تضمنت تلك الفترة عناية بمختاراته المشهورة التي جمع فيها شعراً لثلاثين شاعراً وأنتخب منها ما ينسجم مع ذوقه الرفيع. وقد رتبها ترتيباً زمنياً بدأها ببشار وانتهى فيها بالشاعر ابن عنين. لم يكد ينتهي من ترتيب ديوانه الضخم ومختاراته الرفيعة حتى سقط قلمه في كانون الأول عام ١٩٠٤، وكأن القدر كان ينتظر منه إكمال رسالة في فن الشعر.

المصادر:

١- محمود سامي البارودي: علي الحديدي

٢- البارودي رائد الشعر الحديث: شوقي ضيف